القراءة الاركيولوجية لعدمية شوبنهاور

ان اهم ما قدمته الاكتشافات العلمية والتحولات المعرفية التي شهدتها اوربا بصعود عصر التنوير تمثل بدخول فكرة الحرية لينفتح العالم الغربي على نوع من الوعي بالذات اسفر عن مقاومة كل شكل من اشكال القمع والعبودية تحت مظلة الثورة الفرنسية على ان افولها على يد نابليون ثم (واقعة واترلوا [*]) كأخر الحروب النابليونية التي حسمت الحكم لصالح عودة (أل بوربون – خلفاء لويس والاول) وعزل نابليون قد اسفرت عن قلق وفقدان الثقة اصاب المجتمع الاوربي ليعم التشاؤم بين شعراء وموسيقي وفلاسفة القرن التاسع عشر وعلى نحو خاص في فرنسا وبريطانيا وروسيا والمانيا ، ويعد اللورد بايرون اول من اعلن فكرة التشاؤم على ان شوبنهاور اضاف لتشاؤميته جرعات مضاعفة طغت على حياته و طروحاته الفلسفية . متخذاً موقفاً عدمياً يبدأ من ادانته للحياة بوصفها مصدر للالم والشرور والمعاناة. (العالم ارادة وفكرة ١٨١٨)

((فإن شوبنهاور يؤمن بأن أساس هذا الكون بلا معنى... و أن الشخصيات الفردية لا حول لها ولا قوة إزاء عالم يسير بلا معنى ، وبأن الموت الجسدي هو إعدام لوعينا الفردي)) [١] وبذلك الاعدام تتحقق الراحة من المعاناة والشقاء داعياً الى الانتحار للخلاص من شقاء الحياة والامها وان الموت لا يسبب الالم بل فكرة الموت هي من تسبب الشقاء والالم للانسان لان الانسان تتملكه الارادة العمياء الشريرة التي تعمل على ترغيبه واغوائه بالحياة والاستمرار بشقائها .

يتخذ شوبنهاور في تفسيره للوجود موقفاً مادياً عندما قرر ان الوجود عبارة عن المادة المطلقة، فليس في الوجود سوى المادة وذلك الوجود تحكمه وتحركه الارادة ، والارادة كما قدمها شوبنهاور تعني الرغبة والاندفاع والميول بكل انواعها سواء في الطبيعة او الانسان وتتمثل الارادة في الطبيعة كقوة للحفاظ على الحياة في الأنواع (النبات والحشرات والحيوان والإنسان) وهنا فأن ما يحرك كل ارادة في الوجود هو الرغبة في البقاء والاستمرار وذلك البقاء يتطلب صراعاً تهزم به الارادات الاضعف وتتفوق الاقوى ، يتضح اذن ان المحرك الاساس للارادة عند الانسان هو الرغبة لتحقيق غاية ما وهذه الرغبة تتوالد بأستمرار كنوع من الحفاظ على الوجودمن خلال الغريزة الجنسية على ذلك طور شوبنهاور فكرة الرغبة في العيش كمفهوم يتصل بالارادة ودافع أعمى وبلا معرفة يقود السلوكيات الغريزية

---

*) معركة واترلوا ١٨١٥ : معركة مفصلية في التاريخ الأوروبي بين القوات الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت وقوات الحلفاء التي تتكون من القوات البريطانية والهولندية والبلجيكية والألمانية، دارت رحاها يوم ١٨ يونيو/حزيران ١٨١٥ قرب قرية واترلو البلجيكية بعد عودة بونابرت من منفاه الأول عام ١٨١٤ ورغبة منه في استعادة نفوذه، انتهت المعركة بهزيمة القوات الفرنسية، وآلت نتائجها إلى سيطرة الدول الأوروبية على فرنسا وانتشار أفكار القومية، وأسست لسياسة جديدة في المنطقة.

١) روبرت فيكس : شوبنهاور ، تر. سعيد توفيق ، افاق للنشر والتوزيع ، ط١، القاهرة – مصر ، ٢٠١٦، ص١٤

وتسعى الى ما لانهاية في الوجود البشري على ذلك اكد شوبنهاور ان وسيلة الإرادة في تنفيذ غايتها من بقاء النوع في الإنسان أمران: العقل ، والغريزة الجنسية .

ويرى شوبنهاور ان كل افعال الانسان وحتى نظامه البايولوجي يقوم على الارادة وهنا يقسمها الى :

ارادة واعية : وهذه تتعلق بأفعال العقل وسلوكياته وهي اقوى الارادات في العالم كونها ارادة واعية .

اردة لا واعية : وتتمركز في كل عضو من أعضاء جسم الإنسان وفي كل حركة يقوم بها سواء كانت خارجية في تحريك الأطراف أو الكلام، أو حتى في الحركات الداخلية لجسم الإنسان من حركة الأمعاء والشرايين والقلب، فالكل يتجه نحو رغبة ما، نحو شيء ما، لكنها رغبة لا واعية تشبه تلك الموجودة في أدق الكائنات المجهرية .

ولما كانت رغبة العيش او الارادة تسعى بأستمرار للحفاظ على النوع الانساني سيبدو الموت عدو الارادة ولكنها كقوة قاهرة تهزمه من خلال الغريزة الجنسية . ولان تشاؤمية شوبنهاور تدعوا الى الخلاص على اعتبار ان الموت راحة ابدية وخلاص من الم الحياة وشقائها يتخذ الاخير موقفاً عدمياً اكد فيه ان جوهر الحياة والوجود قائم على الشر والتعاسة والمشقة وهذه تشكل جانباً ايجابياً للحياة على اعتبار ان السعادة واللذة وهم ولا وجود لها بل انها حالة مؤقتة من اختفاء الالم والشقاء او تقليص وطأتهما ما يلبث ان يعود من جديد لذا اكد شوبهاور بأن الموت هو الراحة الوحيدة من المعاناة .

يدعوا شوبنهاور في اراءه الفلسفية الى الخلاص من الارادة الشريرة التي ترتبط لعالم الرغبات اما من خلال الزهد او الفن :

- الخلاص بالزهد وانكار الغرائز بما يحقق الوصول الى صورة للارادة الممتدة في عالم المثل . وهنا يتخذ شوبنهاور موقفاً مثالياً متعالياً تمتد جذوره في الفلسفة الافلاطونية و الكانتية فقد اعجب الاخير بمذهب الصور او المثل الافلاطونية . كما اعجب بطروحات كانت حول بالمعرفة القبلية بوصفها صور عقلية خارج الخبرة الحسية ، ثم المفهوم المركزي للشيء في ذاته او ما يعرف بـ (النومينون [*]) ويعني جوهر الاشياء التي يمكن لا ادراكها بالخبرة الحسية وقد توصل شوبنهاور الى ان الصورالازلية او المثل الافلاطونية هي بعينها الشيء في ذاته عند كانت بوصفهما ينتميان لذات الخصائص من حيث تجردهما من الزمان والمكان ولا يخضعان للتغيير وليس لهما بداية او نهاية لذا يضيف شوبنهاور مفهوم الارادة كمرادف لفكرة الصور والشيء في ذاته فالارادة والصور والشيء في ذاته تتخذ معنى واحد اذ يستعين شوبنهاور بالصور الافلاطونية بوصفها اول مظهر موضوعي للارادة أي التحقق الموضوعي الاول للارادة بوصفها الشيء في ذاته [١]

[*]) الباطنة أو النومينون باللاتينية (noumenon :هو مصطلح فلسفي ويقصد به ويرادفه في الاستخدام الفلسفي الشيء في ذاته ومصطلح النومينون لم يكن شائعا حتى جاء به الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت ثم أصبح مصطلح النومينون مرتبطا بالفلسفة الكانتية. والمقصود بالشيء في ذاته هو الحقيقة الأساسية للشيء التي تكمن وراء الظواهر. وعكسه الفينومينون (Phenomenon) ويتعلق بالظواهر المدركة حسياً اذ يميز كانت بين "الظاهرة " و"الشيء في ذاته". فالظاهرة هي الطريقة التي يظهر بها لنا العالم عبر حواسنا وفهمنا، وهو ما نختبره بالفعل . أما الشيء في ذاته فهو الكيان أو الواقع كما هو في جوهره، خارج نطاق حواسنا وقدرتنا على إدراكه . على اعتبار ان للبشر حدود معرفية معينة .

[١]) وفيق غريزي : شوبنهاور وفلسفة التشاؤم ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٩ - ٦٠

ان موقف شوبنهاور المتعالي يبدأ من ادانته لعالم الحواس والعالم المادي بوصفه مزيف ومخادع متأثراً بالتعاليم الفلسفية الهندية وفكرة المايا التي تنص على ان العالم المادي عالم غير حقيقي كما يظهر ولاجل الوصول الى الحقيقية لا بد من ترويض النفس بالزهد وانكار الذات والغرائز ، فالعالم كما تقدمه المايا الهندية تقوم على فكرة الوهم. وهو الاعتقاد بأن العالم المادي غير حقيقي . غالبًا ما ترتبط المايا بفكرة أن الطبيعة الحقيقية للواقع تتجاوز إدراكنا ، وأن العالم المادي مجرد وهم خلقه العقل . يعتبر هذا المفهوم أساسيًا للعديد من الفلسفات الهندوسية والبوذية، وغالبًا ما يستخدم لوصف دورة الولادة والموت والبعث، بالإضافة إلى الهدف النهائي المتمثل في التنوير الروحي. وهكذا فأن ((شوبنهاور من بين أوائل فلاسفة القرن التاسع عشر الذين أكَّدوا على أن العالم في جوهره ليس مكانًا عقلانيًّا، متأثرًا بـ أفلاطون وكانت ، اللذين اعتبرا أن العالم قابلٌ للعقلنة ؛ حيث قام شوبنهاور بتطوير فلسفاتهم إلى صورة يمكنها استيعاب الغرائز الطبيعية بشكل أكبر، والتي آلت في نهاية المطاف إلى نظرة زاهدة تجاه الحياة، مؤكدًا على أنه في مواجهة عالم يعج بالصراعات التي لا تنتهي، يتحتم على الإنسان السيطرة على رغباته الطبيعية في سبيل الوصول إلى الحالة الذهنية المستقرة التي تسمح له بتحقيق المنفعة الشاملة)) [١]

الخلاص بالفن : ويعد الفن بحسب شوبنهاور وسيلة اخرى للخلاص فالفن يسمح بتأمل الكون والحياة تأملاً نزيهاً خالياً من الغرض أو شوائب الإرادة ((فعادةً ما يعتَبَر آرثر شوبنهاور فيلسوفًا تشاؤميًّا من الطراز الأول، بيد أن شوبنهاور، في الواقع، دعا بواسطة أشكالٍ من الوعي الجمالي، والأخلاقي، والزهد العام، إلى تجاوز الواقع البشري الذي لا ينطوي إلا على الألم والتعاسة)) [٢]

وهكذا تتبع التطبيقات الفلسفية لشوبنهاور في مجال الفن والجمال فكرته المركزية للارادة فالممارسة الفنية كلما انكرت الرغبات والغرائز كلما اقتربت من المثال وتحررت من شوائب الارادة ويسحقها عن طريق التأمل عندئذ يصل الفنان الى روية المثل او جوهر الاشياء . ويضع شوبنهاور العبقرية في بداية طريق الخلاص من الإرادة، وذلك لأن العبقرية قائمة على سيادة الرؤية المستبصرة والتأمل النزيه المجرد من الإرادة ا، إذ يتجاوز الفنان الجزئيات إلى رؤية الكليات وتتكشف له ماهية الأشياء في نظرة حدسية خالصة منزهة عن الإرادة الذاتية. فالمبدع أو العبقري هو الذي يستطيع أن يتعرف على المثل في الأشياء، ويتخلص من ذاتيته ، لتصبح ذاتاً معرفية خالصة من خلال العلاقة مع المثل الذي لا يتغير أبداً، ويعطينا اللذة الجمالية المنزهة عن الغرض أو المصلحة .

---

[١]) رويبرت ويكس : ارثر شوبنهاور تر . مايكل ماهر . ت. عمار ايمن ، مجلة حكمة الالكترونية ٢٠٢١ ' ص ٢ .
https://hekmah.org/%D8%B4%D9%88%D8%A8%D9%86%D9%87%D8%A7%D9%88%D8%B1

[٢]) رويبرت ويكس : ارثر شوبنهاور ، مصدر سبق ذكره ، ص٢ .

الموقف الابستمولوجي لشوبنهاور

يقدم شوبهاور طروحاته الفلسفية عن الوجود ابتداءً من العلاقة بين الانسان ومحيطه الخارجي فثمة وجود للظواهر وتمثلاتها الصورية تقابلها الذات المدركة لهذه الظواهر بما يجعل من الفصل بين العالم الخارجي والذات اجراء خاطئ فشوبنهاور يضعنا امام علاقة احتوائية تدمج بين الذات والموضوع لتشكيل رؤية متكاملة عن الوجود مؤكدا ((ان عالم التجربة هو عالم الظواهر وهو ايضاً عالم التمثلات فهو العالم الذي يكون موضوعا بالنسبة الى الذات العارفة ... فالعالم هو ما يبدو لنا وان وجوده متوقف علينا اي على الذات التي تقوم بأدراكه فيقول العالم كله هو فقط موضوع بالنسبة الى ذات او هو ادراك مدرك او بأختصار تمثل)) [١]

ولكن اذا كان الشيء بذاته عند كانت ذات خاصية جوهرية لا يمكن ادراكها بالحواس فأن الارادة قوة تتمثل من خلال صور الوجود اذ يقيم شوبنهاور افكاره الفلسفية على مبدأ الارادة الكلية .

[١] وفيق غريزي : شوبنهاور وفلسفة التشاؤم ، دار الفارابي ، بيروت – لبنان ، ط١، ٢٠٠٨ ، ص ٥٧- ٥٨